بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى -في هذه السورة الكريمة سورة البقرة:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204)

قال سعيد مصطفى ذياب: حال كثير من الناس، الدنيا أكبر همه، ومبلغ علمه، لها يجمع، ومن أجلها يسعى، يلهيه حرصه عليها عن البحث في مصدر دخله، ويعميه الشره عن النظر في عاقبة كسبه، كان دعائه﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾،لا يعنيه أن يكون مطلوبه حسنًا أوقبيحًا.

من سعادة الإنسان أن يلهمه الله تعالى رشده، فيميز بين ما ينفعه وما يضره، وأسعد منه من يرزقه الله تعالى التمييز بين خَيْرِ الْخَيْرَيْنِ ، وَشَرِّ الشَّرَّيْنِ، وقد قيل: (لَيْسَ الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْلَمُ الْخَيْرَ مِنْ الشَّرِّ وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ الَّذِي يَعْلَمُ خَيْرَ الْخَيْرَيْنِ وَشَرَّ الشَّرَّيْنِ)،السعيد الذي يجعل الدنيا مزرعة للآخرة، كما قال الصالحون من قوم موسى لقَارُونَ: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا} الْقَصَصِ: الآية/ 76 فلا يزرع إلا ما أحب أن يحصد، فلا يقل إلا خيراً ولا يفعل إلا خيراً.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾لو لم يكن في الآخرة إلا العرض على الله تعالى، لوجب على العباد أن يستحيوا من الله تعالى حق الحياء، ويتقوا الله في أقوالهم وأفعالهم، ويتزينوا ليوم العرض الأكبر، لكن من عمى الله بصيرته، لا يرى إلا الدنيا، فيسعى لها سعياً حثيثاً، حريصاً عليها ولو كان ثمن ذلك أن يخسر الآخرة.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: إنَّ بعضَ النَّاس، مِن المنافقين، مَن تستحسنُ يا محمَّد، مَنطقَه وظاهرَ قوله، فتُعجِبك فصاحتُه، لكنه يتحدَّث في شؤون الدُّنيا بعيدًا عمَّا يتعلَّقُ بأمور الآخرة، أو يُعجِبُك ظاهرُ حديثِه عن أمور الدِّين؛ كنُصرةِ الإسلام والمسلمين، وحبِّ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسلام، وغير ذلك، لكنه حديثٌ ينفَعُه في الدنيا فحسب، أما في الآخرة فلا ينتفع به البتَّةَ.موسوعة التفسير

حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدُّنيا، وهي من الدنوِّ زمنًا، ورتبةً: زمنًا؛ لأنَّها قبل الآخرة. ورُتبةً؛ لأنَّها قليلٌ بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلَّا مَشوبًا بتنغيصٍ قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأنَّ له فيه أجرً.الدرر السنية.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: ومن الناس فريق يروقك كلامه يا محمد ويثير إعجابك بخلابة لسانه وقوة بيانه. اللهيميد

لا يغني حسنُ القولِ عن سوءِ الفعالِ، ولا يفيد جمال المظهر مع فساد الْمَخْبَرِ.

(وَمِنَ) بمعنى بعض كما في قوله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8) سورة البقرة.

روى البخاري ومسلم في صحيحهما أن النبي قال: (إنَّ من البيانِ سحرًا).

فصيح اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه، فالأنفس تكون إليه تائقة، والأعين إليه رامقة، والله يشهد أن أقواله تخالف أفعاله، وهذا من النفاق، فالمؤمن أفعاله تصدق أقواله.

وكذلك وجه آخر شبه النبي صلى الله عليه وسلم البيان بالسحر، والسحر محرم مذموم، وذلك لما فيها من تصوير

الباطل في صورة الحق؛ ولما فيه من التصنع والتكلف واستمالة لقلوب المستمعين حتى يحول الشيء عن حقيقته.

والذم يكون للصورتين:

الأول: سواء من كانت أقواله تخالف أفعاله، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) الصف.

والثاني: من كان يظهر الباطل بصورة الحق، بفصاحته ونظم كلامه وإستشهاده بالنصوص على غير ما أتفق عليه أهل العلم.

آفات اللسان من أخطر الآفات وأضَرّها على المرء: عن أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: (إِذَا أَصْبح ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ، تَقُولُ: اتّقِ اللَّه فينَا، فَإِنَّما نحنُ بِكَ؛ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وإِنِ اعْوججت اعْوَجَجْنَا) رواه الترمذي.

"تكفِّرُ اللِّسانَ"، أي: يَخضَعون ويتَذلَّلون له، من التَّكفيرِ الذي هو انحناءُ الرَّأس وطَأْطَأتُه قريبًا من الركوعِ كما يَفعَلُ مَن يُريدُ تَعظيمَ صاحبِه، وقيل: معنى "تُكفِّر اللِّسانَ"، أي: تُنزِّلُ الأعضاءُ اللسانَ مَنزِلةَ الكافرِ بالنِّعم، "فتَقولُ"، أي: للِّسانِ، "اتَّقِ اللهَ فينا"، أي: كُنْ على خوفٍ مِن اللهِ؛ "فإنَّما نحن بك"، أي: إنَّنا مُجْزِيُّون بالثَّوابِ أو العِقابِ بما تقولُه مِن كلامٍ، وقيل: مُتابِعون لك في الخيرِ والشَّرِّ، "فإنِ استقمتَ"، أي: كنتَ مستقيمًا؛ بقلَّةِ الكلامِ ونطَقتَ بالكلامِ الطَّيِّبِ، والابتعادِ عمَّا فيه إثمٌ؛ مِن غِيبةٍ ونميمةٍ وكذِبٍ، وانشغَلْتَ بذِكرِ اللهِ، "استقَمنا"، أي: تَبِعناك في تلك الفضائلِ والأجْرِ، "وإن اعوجَجْتَ"، أي: كنتَ مائلًا مخالِفًا للطَّريقِ المستقيمِ والهُدى "اعوجَجْنا"، أي: مِلْنا معك، وكنَّا بذلك مخالِفين لِما فيه الهُدى والصَّلاحُ. الدرر السنية

وفي "مسند الإمام أحمد" عن أنس رضي الله عنه عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيم قلبُه، ولا يستقيمُ قلبُه حتى يستقيمَ لسانُه".

هذا يدل على أن اللسان خطيرٌ جدًا وخطورته تعود على البَدَن كله وعلى الجوارح جميعها.

عَنْ قَيْسٍ بن عوف قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آخِذًا بِطَرَفِ لِسَانِهِ وَهُوَ يَقُولُ: هَذَا أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ.

قال ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا شَيْءٌ أَحَقَّ بِطُولِ سِجْنٍ مِنَ اللِّسَانِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا لِسَانُ، قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، أَوِ اسْكُتْ عَنْ شَرٍّ تَسْلَمْ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: اللِّسَانُ قِوَامُ الْبَدَنِ، فَإِذَا اسْتَقَامَ اللِّسَانُ اسْتَقَامَتِ الْجَوَارِحُ، وَإِذَا اضْطَرَبَ اللِّسَانُ لَمْ يَقُمْ لَهُ جَارِحَةٌ.

قال عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِسَانُ الْإِنْسَانِ قَلَمُ الْمَلَكِ، وَرِيقُهُ مِدَادُهُ.

قال الْحَسَنُ: يَا ابْنَ آدَمَ، بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ يَكْتُبَانِ عَمَلَكَ، فَأَمْلِ مَا شِئْتَ فَأَكْثِرْ أَوْ أَقِلَّ.

قال ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ أَحَقَّ مَا طَهَّرَ الرَّجُلُ لِسَانُهُ.

قال مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ: كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَمُرُّ بِمَجْلِسٍ لَهُمْ فَيَقُولُ: تَوَضَّئُوا؛ فَإِنَّ بَعْضَ مَا تَقُولُونَ شَرٌّ مِنَ الْحَدَثِ.

(وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ) أي: ويُقرنُ حُسنَ كلامِه ويؤكِّد ظاهرَ حديثِه بأنْ يُخبِرَ أنَّ الله تعالى يعلَمُ بأنَّ ما في قلبه موافقٌ لِما نطَق به، وهو كاذبٌ في ذلك؛ فهو في الحقيقةِ يُبارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما ينطوي عليه قلبُه من الكفرِ. موسوعة التفسير

في قوله تعالى: وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ... إثبات عِلم الله عزَّ وجلَّ بما في الصُّدور؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يعلَمُه إلَّا

اللهُ عزَّ وجلَّ. الدرر السنية

كما قال تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ...) [المنافقون: 1 -4].

(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) أي: يُشْهِد اللهَ تعالى على أنَّه محقٌّ في قولِه ذلك؛ لشِدَّة خصومتِه، وتجلُّده-لاعتمادِه على فصاحتِه-مُجادِلًا بالباطل، وناطقًا بالزُّور مِن القول، كاذبًا في حديثِه، وفاجرًا في خِصامِه؛ فالمنافِق أسوأُ المخاصِمينَ، وأعوجُهم، وأشدُّهم عداوةً. موسوعة التفسير

عن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخَصِمُ)) بخاري ومسلم

وعن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أربعُ خلالٍ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا: مَن إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا عاهَد غدَرَ، وإذا خاصَمَ فجَر، ومَن كانت فيه خَصلةٌ منهنَّ كانت فيه خَصلةٌ منَ النِّفاقِ حتَّى يدَعَها)) بخاري

قال السعدي: لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصا في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه فقال: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق، ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه {وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ} بأن يخبر أن الله يعلم، أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله. فلو كان صادقا، لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: {وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك، ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين، الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سجيتهم. السعدي

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَظْهِرُوا لَنَا أَحْسَنَ أَخْلاقِكُمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالسَّرَائِرِ، فَإِنَّهُ مَنْ اظهر شَيْئًا وَزَعَمَ أَنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةً لَمْ نُصَدِّقْهُ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا عَلانِيَةً حَسَنَةً ظَنَنَّا بِهِ حُسْنًا) .

واحذر أن تنصب نفسك حكمًا على نوايا الناس، أو تحسب أن عندك علمًا بسرائرهم، كما يقول بعضهم مبررًا لقبيح فعله: (كان ينوي أن يفعل كذا وكذا).

قوله تعالى (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) قيل: أي في هذه الحياة الدنيا فقط، وأما في الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب الذي يطلع على القلوب والسرائر. سليمان اللهيميد

فلا يوجد هناك فرصة لتلون يوم تبلى السرائر ويصبح السر علن.

(وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) الألد في اللغة هو الأعوج، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب، ويَزْوَرّ عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، كما قال ε (آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) متفق عليه.

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا) أي: كما أنَّ مقالَه مُعْوجٌّ، واعتقاده فاسدٌ، فأفعاله كذلك سيِّئةٌ وقبيحة، فإذا خرَج وانصرف عنك هذا الذي يُعجِبُك قولُه، سار في الأرض مجتهدًا في إفسادِها بالكفر، والظُّلم، وعمَل المعاصي؛ كقَطْع الطَّريق، وإخافة السَّبيل، وغير ذلك. موسوعة التفسير

(وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) أي: هِمَّتُه في إتلاف الحَرْث، وهو: محلُّ نَماء الزُّروع والثِّمار، وإتلاف النسل،

وهو: نتاجُ الحيوانات؛ فهذانِ لا قِوام للنَّاس إلا بهما، وبإتلافِهما يختلُّ نظامُ الحياة، كما أنَّه إذا سعى في الأرض فسادًا بالكفرِ والظُّلم والمعاصي، منَع اللهُ تعالى القَطْرَ من السَّماءِ عقوبةً؛ فتَتْلَف الزُّروع، وتموت الحيوانات. موسوعة التفسير

قال سليمان اللهيميد: { وَإِذَا تَوَلَّى } هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك(وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد) { سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا } أي: يجتهد على أعمال المعاصي، التي هي إفساد في الأرض { وَيُهْلِكَ } بسبب ذلك { الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ } فالزروع والثمار والمواشي، تتلف وتنقص، وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، قوله تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الروم/41 .

قال سعيد مصطفى ذياب: أسوأ الناس حالًا، وأقبحهم مآلًا يوم القيامة، ذلك الذي ولاه الله تعالى أمر عباده في الدنيا، فعاث في الأرض فسادًا، فسفك الدماء المعصومة، وانتهك الأعراض المصونة، وأهلك الحرث والنسل، وسام العباد سوء العذاب.

عن مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» رواه البخاري ومسلم

وليس الخوف على هؤلاء المستضعفين المضطهدين، إنما الخوف على أولئك الساسة الذين يصفقون ويؤيدون، أو يشاركون بصمتهم في القتل والفساد.

قال تعالى ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الْمُطَفِّفِينَ: الآية/ 4، 5

اللهم إنا نبرأ إليك من خيانة الخائنين، ونعتذر إليك من عجز المستضعفين.

وقال مجاهد رحمه الله: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السَنَة – أي: القحط –وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

وقال عكرمة رحمه الله: دواب الأرض وهوامها، حتى الخنافس، والعقارب يقولون: مُنعنا القطر بذنوب بني آدم.

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ) أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ تلك الأفعالَ، ولا مَن قام بها، وإنْ قال بلسانه قولًا يُعجِب النَّاسَ. موسوعة التفسير

قال سعيد مصطفى: الله لا يحب الفساد، ولا يرضاه، ولا يريده شرعًا، ولا يأمر به،﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾الْأَعْرَافِ: الآية/ 28

ولكن أراده الله تعالى كونًا، فليس في الكون ما لا يريده الله تعالى، وهو خالق كل شيء بما في ذلك الخير والشر، والصلاح والفساد؛﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الزُّمَر: الآية/ 62

ومن الحكم الجليلة، والغايات العظيمة من وجود الشر في الأرض، ابتلاء الخلق، ليميز الله الخبيث من الطيب، والطالح من الصالح، والخائن من الأمين.

قال السعدي: في قوله تعالى {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المفسد في الأرض، غاية البغض وإن قال بلسانه قولا حسنا.

قال السعدي: ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلا على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحق والمبطل من

الناس، بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم.

وقال مجاهد: إذا سُعي في الأرض فسادًا، منع الله القَطْرَ، فهلك الحرث والنسل.

فالمعاصي سبب لنزول المصائب وزوال النعم.

قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (112) النحل.

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) سبأ.

وهؤلاء قوم سبأ أغدق الله تعالى عليهم من صنوف النعم، حتى كان شأنهم بين الأمم آية من آيات الله في خلقه، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وثمار يانعة كثيرة، وعيشة هنيئة رغيدة، وأمن في الأوطان، وراحة في الأسفار، واستراحات بين الأقطار، فجحدوا نعم الله، واستبدلوا الخبيث بالطيب، والشدة والعناء بالراحة والهناء وقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا، وطرحوا نعم الله عنهم، فمزقهم الله شر ممزق، وجعلهم أحدوثة، وعبرة للمعتبرين؛ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ سَبَأ: الآية/ 19

وقال تعالى (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (8) الطلاق.

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96) الأعراف.

وقال تعالى (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ...) العنكبوت40.

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (52) النمل.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) (206)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) أي: إذا أُمِر هذا المنافقُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ بامتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نهى عنه، ومِن ذلك: تَرْكُ الإفساد في الأرض بالكفر والظُّلم والمعاصي، وإهلاكِ الزُّروع والحيوانات، إذا أُمر بذلك، استكبَر، وأخذَتْه حميَّةٌ بسبب وقوعِه في الآثام، وحملَتْه هذه الأَنَفةُ على ارتكاب المزيدِ من السَّيِّئاتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: في قوله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ) ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و {أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ} فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر على الناصحين.

قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ) التعبير بالفعل المبني للمفعول (قِيلَ) فيه بلاغة تامَّةٌ في حذفِ الفاعل؛ ليشمَلَ كلَّ مَن يقول له ذلك؛ فيكون ردُّه لكراهةِ الحقِّ لا للقائل به.الدرر السنية

قال سليمان اللهيميد: ⇦قيل: الباء في قوله (بِالْإِثْمِ) بمعنى اللام، أي: أخذته العزّة، والحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه وهو: النفاق، وقيل: الباء بمعنى: مع، أي: أخذته الْعِزَّةُ مع الْإِثْمِ.

يجب الحذر من الكبر الذي يحمل العبد على رفض الحق والحذر من رد النصيحة، أن رد النصيحة من علامات المنافقين.

(فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ) أي: كفاه عقوبةً مِن غيِّه وضلالِه، صَلْيُه نارَ جهنَّمَ، ولبئس الفِراشُ والوِطاءُ

جهنَّمُ، الَّتي وطَّأها لنفسِه بنِفاقِه وفُجوره. موسوعة التفسير

قال السعدي: {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ} التي هي دار العاصين والمتكبرين،{وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} أي: المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياذا بالله من أحوالهم.

قال سعيد مصطفى ذياب: هذا حال بعض الناس، إذا ذُكِّرَ بالله طاش عقله، وطار لبه، واكفهر وجهه، وأظلمت الدنيا في عينيه، وما ذلك إلا لأنه يرى نفسه فوق البشر، ويرى الناس دونه في كل شيء، فيبطش بمن ذَكَّرَهُ باللهِ أشدَ البطشِ.

فيقتل من استطاع قتله، ويملأ السجون من معارضيه، ويُهَدِّم البيوت على رؤوسهم؛ لأنه لا يحب أن يُذَكِّرَهُ باللهِ أحدٌ، ألا نرى ما يحدث للمستضعفين في شتى بقاع الأرض.

قال الشيخ سعيد: فإلى كل ظالم، وإلى كل طاغية، وإلى كل جبار عنيد، إلى من سعى في الأرض فسادًا، بشرى من رب الأرض والسماء:﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾، وإلى كل المستضعفين والمقهورين والمظلومين، بشرى من رب الأرض والسماء:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾إبْرَاهِيمَ: الآية/ 42 اللهم فرج كرب المكروبين من المسلمين في كل مكان.

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) (207)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) أي: إنَّ هناك صِنفًا من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذلونها ثمنًا لنيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ. موسوعة التفسير

هؤلاء الذين يبيعون أنفسهم لله تعالى، فما داهنوا، ولا فرطوا، ولا ضيعوا دينهم.

قال خالد السبت: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) لما أخبر تعالى عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ) أي: ومن الناس فريق من أهل الخير باع نفسه.

قال ابن كثير: قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وأبو عثمان النّهدي، وعكرمة، وجماعة: نزلت في صُهيب بن سنَان الرومي، وذلك أنَّه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإنْ أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فَعَل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرّة، فقالوا: رَبح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أنّ الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ε قال له (ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب).

وأما الأكثرون فحمَلوا ذلك على أنها نزلت في كل مُجاهد في سبيل الله، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ، ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين، أنكر عليه بعضُ الناس، فردّ عليهم عُمَر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ).

(ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) أي: طلباً لمرضات الله ورغبة في ثوابه لا يتحرى بعمله إلا وجه الله.

قال الرازي : أكثر المفسرين على أن المراد بهذا الشراء : البيع ، قال تعالى (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أي باعوه ، وتحقيقه أن المكلف باع نفسه بثواب الآخرة ، وهذا البيع هو أنه بذلها في طاعة الله ، من الصلاة والصيام والحج والجهاد ، ثم توصل بذلك إلى وجدان ثواب الله ، كان ما يبذله من نفسه كالسلعة ، وصار الباذل كالبائع ، والله كالمشتري ، كما قال (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) وقد سمى الله تعالى ذلك تجارة ، فقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11)الصف

(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) أي: واللهُ ذو رحمةٍ عظيمة بعباده، ولعبوديَّتِهم له يرأَفُ بهم، وخاصةً مَن يبيعون أنفسَهم له سبحانه، ومِن رأفته بهولاء أنْ يوفِّقَهم لذلك، ويرضى عنهم. موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) أي: ذو رأفة، وهي أشد الرحمة.

⇦الرأفة أرق من الرحمة أي: منتهاها وكمالها واشتدادها.

ولذلك قدمت على الرحمة في وصف النبي صلى الله عليه وسلم في قوله -تعالى-:﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

وقيل: رؤوف بالطّائعين، ورحيم بالمذنبين.

يا إله الورى الذي ملأ الأرضَ بهِ رأفةً وأمْناً وَسِيعا

كن لنا جانباً حريزاً من الخوف وحصناً من الخطوبِ منيعا

قال الرازي: فمن رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته جوز لهم كلمة الكفر إبقاء على النفس، ومن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومن رأفته ورحمته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب ولو في لحظة أسقط كل ذلك العقاب وأعطاه الثواب الدائم، ومن رأفته أن النفس له والمال، ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً.

قال سعيد مصطفى: ما نراه اليوم ابتلاءًا، قد يكون اجتباءًا، وما نراه كربًا، قد يكون قربًا، عودنا الله تعالى أن تُولَدَ من أرحامِ المحنِ منحٌ، وأن تَخْرُجَ من أصلابِ الفتنِ منٌ، ألم تكن الهجرةُ نصرًا؟ ألم يكن صلحُ الحديبيةِ فتحًا؟ ألم تكن غزوةُ الخندقِ خزيًا وعارًا، وشرَ هزيمةٍ على أعداء الله؟